ثورة .. على الفكر العربي المعاصر

بقلم محيي الدين محمد

الضوء على المشكلة (*)

ها هي مجموعة من الاقطار والبلدان ، في شرقنا العربي ، متحدة اللغة والثقافة والاصول تريد ان تنهض من عثرة سقوط مدمر الغى وجودها مئات من السنوات وحجرها وصيرها بالتخلف الذي نراها عليه الان. وارادة النهوض هذه ليست الا تعبيرا مركزا جدا عن وعي مقدار التخلف الذي اصبحت عليه بالقياس الى امجاد الحضارة الاوروبية الحديثة .

الاتجاه العام القيادي هو تصنيع البلاد العربية ، وتغيير التراث الزراعي جميعه ، ليمكن للعقل ان يقفز من محدودية الخرافة والتسليم والرضى ، وهو مظهر من اشد المظاهر الانسانية تعاسة وخزيا ، الى انطلاق العقل والمحاجاة وطلب تحقيق العدالة والحرية .

الافكار في الشرق العربي مرتبطة بنوعية الحياة فيه ، فحيث يكون المحراث اداة الزارع ، يظل الفقر عاملا حاسما في تبليد ذهن الريفي وتأخيره ، بل وفي تحديد شكل وعيه ومدى عمق معرفته ، ويمكن بمقابلة بسيطة بين زارع في الاقليم الجنوبي ، واخر عراقي ، ان نستنتج الاثر المدمر لاصابع الفقر هنا وهناك . انه يوحد الملامح ، ويقرب التقاطيع .. بل ان الاغاني ذاتها ، وهي تعبير عن واقع الافراد في ارتباطاتهم الاسرية والمجتمعية ، تأخذ سمتا موحدا ، فآلام العربي في بلدما، هي ذاتها آلام العربي في بلد اخر .. ولما كانت الاغنية والقصة والشعر هي عوامل التنفيس عن مأساة الوجود التي يعيشها اي مجتمع في العالم، كان تأكيد هذا المجتمع على تخطئة لون من الوان الوجود ، اشارة منه بضرورة تغيير هذا اللون الذي يوشك ان يفجر تماسك المجتمع الشاكي ويمزقه .

والفنون في شرقنا العربي انين منصل من الفقر والعوز اللذين يحطمان الاسرة ويحطمان الافراد . انها تعبير عن واقع نعانيه ، يدوخنا ويقتلنا ويذهب معنا الى القبر .

فهل هو مجد ان نغير من اغنياتنا وقصتنا واشعارنا ، وان نستعير اشعار الغرب واغنياته بدعوى تطويرها .. ؟!

اهو مجد ان ننشيء المجلات الادبية والمنابر ، والجمعيات الثقافية والمكتبات ، بدعوى تغيير الذهن العربي ؟. منطقوا الامر ،اذن ما دام الفقر هو مشكلتنا الاساسية : كيف نغير ذهن الزارع المتدين الذي تتحول الدار الاخرة في وعيه ، من محض عقاب وثواب ، الى جائزة ينالها لقاء عذابه في الدار الدنيا ..؟ كيف نطور هذا الذهن الذي يقبل من اللاوعي فكرة فقره ، ويلح على وجودها ، كأن حياته بدونها لا تستأهل شيئا ..؟ الم يكن المنطق الديني هو الذي املى هذا الجواب على الريفي المسكين ليمكن له ان يحيا بكثير من الامل .؟ كيف نغير هذا الجواب ، وهذه الذهنية ؟!

اليس تلفيقا ان نحول هذا التيار الوجودي الزخم ، وان نتعاطى المسكنات الغربية من مذاهب وفلسفات واطر جمالية لا تعنينا في شيء ؟. اليس من الاوجب والانسب ان نبدأ من فكرنا ذاته الغارق في مليون حماة وطين .؟!

ان المشكلة هي في سيكولوجيا الذهن الشرقي الذي تأثر بالوضع المادي وبنفسية المذلة ، ووحي الدين وعنف الحاكم ، والرضى والتسليم بما كتبه الله (*) ...!!

كل ذلك مجتمعا هو الذي وحد النتائج في كل البلدان العربية ،ووحد قسماتها ، وجعلنا هذا القطيع من الناس الذين لا يرفضون الظلم والبطش لان الدين يحض على التسليم بكل ما يقوله اولو الامر ، وجعلنا هذه النماذج التي لا تابه بطلب العدالة لان الدين يؤكد على وجود الطبقات بعضها فوق بعض .. فاذا كنا لا نابه بالعدالة ولا بالعيش الطيب ولا نريد الحرية في هذا العالم الرحب الغني العظيم المتخم خيرات ، اذا كنا لا نريد ذلك ونرفضه ، وندع اقواما اخرين يعيشون ويتسلقون فوق اكتافنا ورؤوسنا وينعمون بالعيش الطيب والحياة النظيفة الخالية من الامراض والذل والقذارة ، اذاكنا نرفض ذلك ، فلماذااذننتزاوج وننجب الاطفال ونبني البيوت والاسر والحدائق ..؟ لماذا لا نعيش في الكهوف والاديرة بدون زواج حتى الموت .. فهكذا على الاقل نصبح اقرب بمسافة عظيمة من الله ، مما لو واجهنا الحياة بنصف وجه ، وواجهنا الله بالنصف الاخر !!!

(*) يهم التحرير ان يؤكد مرة اخرى ان نشر هذا المقال لا يعني تبني ما ورد فيه من آراء لا سيما وان بعض هذه الاراء لا يرتكز الى حقائق ثابتة . ونحن نترك المجال واسعا للمناقشة والتعليق .

« للاداب »

(*) لعل مأساة فلسطين هي اشد مآسينا تحسيسا بهذه النكبة التي لوثت وجودنا النفسي ، الم يكن التسليم بالمقدر والمكتوب بزيادة الخيانة والغدر هما سبب الضياع المؤقت لهذه الارض العربية . ؟!

عناصر المشكلة :

تغيير الذهن العربي كلية هو مسئولية وعي القادة والاوضاع المادية والزمن .

الاوضاع المادية تتكفل بها الدولة من ناحية والوعي من ناحية اخرى ، فلا يكفي ان يكون التصنيع سياسة تتخذها الدولة وحسب ، اذ يجب على الفكر الذي عايش التمرد الاوروبي وعرف عنه اخطاءه ومزاياه ، ان يعجل برسم الطريق الصواب ، وان يحذر من المهاوي والمزالق التي تعترض التطور ، .ذ ان هناك ذهنين : الذهن الجلف العام ، والذهن القيادي للمفكرين . فاذا امكن للدولة ان تتخذ التصنيع مسالة حيوية تغير بها من واقع الامة المادي ، وجب على الذهن القيادي ان يخضع الذهن العام للقوانين العلمية من رفض للخرافة والتقاليد ، ومن تحطيم الاوثان الزراعية ، ومن انهاض شامل للوعي الشاك في معجزات الاضرحة واولياء الله ، ومن الحاح على نزع ديدان الخمول من الذهن العام الذي يرفض ان يطالب بالعدالة وبالحرية وبقية الاسس التي تقوم عليها النهضة ..

والزمن من ناحية اخرى عامل فعال ولكنه بطيء جدا في تغيير الذهن وتحويله (اي ان الادارة البشرية الفاعلة تخضع في النهاية تحت الحاح الزمن وضغطه فتبدأ مهمة التحويل في قنوط وبطء) ، وبالطبع ليست فعالية الزمن مباشرة وجذرية ، ونحن احسن الامم فهما لهذه المشكلة فقد امضينا في صمتنا وجمودنا مئات من السنوات بدون ان نحاول التحرك والتطور .. وذلك لان الزمن وحده لا يمكنه ان يفعل شيئا ، فلا بد للزمن من ذهنية تقابل بين المجتمعات المتطورة الاخرى وبين المجتمع الساكن ، وتحاول ان تقارن وتدرس ، فتطالب وتطالب وتحرك .(*)

اما وعي القادة فمسئولية ملقاة على كاهل شبابنا العربي المثقف الذي يلاحظ التطور بعيون ناعسة . ان الجيل السابق على هذا ، اي جيل آبائنا لا يستطيع ان يشارك النهضة التي بدأت بجيلنا الشاب ، والمشكلة كلها ، في هذا الجيل ، والجيل القادم .. هذه البراعم التي نشاهدها الان تلهو بالكرة في الطرقات ، وبالورد في الحدائق .. ان مقدرات نهضتنا العربية كامنة في هذه الاكف الوردية الصغيرة التي تجهل جسامة ما هو مطلوب منها ..

ان على الذهن القيادي ان يحول وعي الجماهير ، وان ينتشل منه الخوف والشكوك التي عذبته ، وان يزرع بدلها الصلابة والادراك والمطالبة باستعمال اقسى الوسائل لتحقيق العدالة والحرية ، والذهن القيادي تخطيطي في اساسه ، والذهن العام تطبيقي وعاكس ، فلا مرد اذن والامر هكذا على الذهن القيادي ان يتحرك وان يضع الاسس الموائمة لاحتياجاتنا طالما هو السابق في التطور منطقيا من حيث وجوده في الزمان ..

وكل عنصر من هذه العناصر (الاوضاع المادية . الزمن . وعي القادة) متماسك مع العناصر الاخرى بشكل لا يقبل التجزئة ، ومخالف في نفس الوقت من حيث النوعية واللون والقسمات لبقية العناصر .

الوعي القيادي يعني مسئولية المفكرين ، والمفكرون في شرقنا العربي لا يخرجون عن حدود الادباء وهذه مشكلة فرعية اخرى ، فالظاهر ان علم الاجتماع بافرعه الاربعة لم يستطع ـ في تاريخ كلياتنا ـ ان يخرج مفكرا اجتماعيا كبيرا عربي القسمات ، يستطيع ان يحدد القيود الاساسية لتخلفنا ... وذلك بالطبع نتيجة حتمية لانصراف الذهن العربي العام عن متابعة مشاكل هامة كهذه ، وبحثه عن المغيبات والمكيفات وكافة وسائل قتل الوقت والغاء الواقع (*).

الادب اذن في شرقنا العربي صورة فكرنا وضميرنا ، بكل الوانه من الاغنية الى المقال . اذا نظرنا الى حياتنا وجدنا هذه اللامبالاة وحس عدم المسئولية الذي نجده واضحا في ادبنا وضوحا شديدا ، فهل ذلك لاننا فقراء .؟

ان الفقر بكل ما يتبعه من جهل ومرض ومذلة وكراهية ورغبة في العزلة ، بزيادة الاوصاب الاخرى النفسية التي تراكمت فوق نفسية الشرقي فصيرته هذا الرجل الذي يغني لماضيه الفقير ، حيث كانت اعظم مظاهر الرفاهة هي اقتناء اربعين جارية ، والذي لا يمكنه ان يخجل من حاضره ، لانه لا يقيم وزنا له .. ولا لمستقبله .. هذا الفقر الذي اطر مشكلاتنا وصبغها بلونه ،يظل على راس كافة ما يجب ان ننادي بتغييره وتبديله في سبيل مستقبل ناصع ومشرق لبلادنا ..

واذن ، فلا بد ان نؤمن بالتحول ، وان نعمل له ، واذا كان فكرنا في هذه المئات الكثيرة من السنوات منعزلا عن واقعنا الحياتي ، بتاثير دكتاتورية العقيدة ، وبتاثير الفهم الخاطيء لطبيعة العمل الفني، وفعاليته، فعيب كبير ان يظل هذا الفهم الملوث غائصا في عقولنا حتى منتصف القرن العشرين ... وان كانت طبيعة العمل الفني ان يكون عاكسا للحياة ، فان امكانياته الخاصة بالتطوير وتحويل الاذهان طبيعة فيه ثانية ، واشد من تلك خطرا واهمية . فلنؤكد اذن على العنصر الثاني ، ولنتشبث به ..

طرح المشكلة :

الادب الاوروبي الحديث ، ادب له جذور عميقة وغائصة في قلب حياتهم المتطورة المندفعة . والرجال العظام الذين اسهموا في عملية التكوين الجديد للواقع الفكري الاوروبي كشيكسبير ودانت وجوته ، لم يخلقوا من الهواء روائعهم الفنية ، اذ كانت الارضية موجودة بكل زخمها وعمقها وتفتحها واستجاباتها . ان عناصر الفكر الاوروبي الحديث قد بنيت اساسا على : ا ـ الثقافة الاغريقية ـ ب ـ الثقافة المسيحية ـ حـ ـ ثقافة العلم الحديث . وبالطبع تعتبر كل قيمة من هذه معاكسة ومناقضة للقيمة التي تليها ، فكيف اذن تداخلت هذه القيم المتعارضة وخلقت هذا التيار الموحد الذي هو طابع لعقلية الغرب الحديثة ؟..

ان الثقافة الاغريقية بكل ما قدمته من عقلانية واصرار على حرية الفكر والعقيدة كانت القاعدة الراسخة التي قامت فوقها المسيحية ، فما استطاعت بكل محاكم تفتيشها وسلطاتها وشرطتها والهها ان تقوض البناء الاغريقي للفكر ، وان تزعزعه .. وما ان تولت المسيحية السلطات التشريعية والقانونية ، حتى هب الاحرار في كل بلد غربي وطالبوا بالحد من دكتاتوريتها وعنفها ، وكان في اذهانهم الوعي الاغريقي العظيم بقيمة

(*) يقولون ان سائحا غريبا لقي اعرابيا يبكي في كهف بالصحراء فابتاع منه بيضة دجاجة بقرش واحد وبعد عشرة اعوام تقابل الاثنان مرة اخرى ، غير ان السائح اراد هذه المرة ان يشتري دجاجة كاملة ، فكم كانت دهشته عندما اخبره الاعرابي ان ثمنها قرش واحد .. وغابت الدهشة عن وجه السائح عندما فسر له الاعرابي ذلك بقوله .. « ان الفرق بين البيضة والدجاجة هي مسالة زمن فقط ، ونحن لانهتم بالزمن ولا نعيره التفاتا .... »

(*) بل ان اهتمام الجريدة عندنا بابراز الجريمة وقصص الزنا الفاضحة يوجه عن قصد لارضاء الذهن الفردي المقهور الذي يطلب من مذلة اخرى وقهر اخر ان يرضيا بطريق التداعي قهره الخاص .

الانسان وقيمة الحرية الفردية . وهذا التأكيد على الاهتمام بدراسة الانسان كاقيم عضوية في الوجود ، نازع وصارع حتى الموت الفكرة المسيحية في الغاء مناقب الانسان الاغريقي وتحويله الى الانسان الصنم المقعد الذي يجب ان يحول وجهه نهائيا الى الله والى الزهد .

ولما ثبتت المسيحية اقدامها في المجتمع الاوروبي لم تستطع اطلاقا الغاء هاتين الفكرتين الاساسيتين للذهن الاغريقي (قيمة الفرد . الحرية) بالرغم من انهما تعتبران من العوامل الفعالة في هدم البناء الاساسي للديانة المسيحية ، واذن فقد استطاع العقل الاغريقي ان يبث في الزمان روحه وعقلانيته الى ان تم النصر للعقل نهائيا بمقدم العلم الحديث الذي صارع المسيحية وصارع قالبها السكوني ، وما زال يحفر القبور لها في كل مكان من القارة .

كل قيمة من هذه القيم كانت تحمل في داخلها الهلاك للقيمة الاخرى السابقة لها ، وكان يمكن ببساطة ـ كما حدث في شرقنا العربي ـ ان تسود قيمة واحدة تظل تحكم الى الابد، لو لم يكن ذلك الذهن النادر الذي حصن اول ما حصن على حرية العقيدة وحرية التبشير بها ، وكانت اوروبا حسنة الحظ جدا لان القاعدة هي التي نادت بذلك وآمنت به ..

واذن ، فقد كان القاع مفتوحا لكافة المناقشات وللتعبير كيفما كان شكله وخطورته ، وبدأ الذهن الفولكلوري الذي شغلته الاساطير اليونانية القديمة جدا ، يجد ربه في اقامة شعائر غنائية تمثلت في الياذة هوميروس واوذيسته ، وقفزت بعد ذلك بمدة طويلة في أشعار فرجيل وصافو وتاسو واريوستو .. ومن الشرق أضيف ذلك التراث الذي كانت أصوله موجودة قبل ذلك في كتاب الموتى ، احد اعمدة الثقافة المصرية القديمة ، وفي نقوش بابل ونينوى ، ومن بعض مقاطع الرامايانها والمهابهاراتا ، واضيفت اقاصيص التوراة القديمة لتحيل الذهن الغربي جحيما من الاسئلة والمعارضات والشكوك ، وعلى أثر كل نكسة كان الذهن اليوناني يتدخل بصورته الرائعة ، فيرتد الذهن الاوروبي من التسليم الى النقد ..

فاذا وضعنا في اعتبارنا المشاكل التي عرضها لنا الشاعر الانكليزي وليم شيكسبير وجدناها لا تختلف اختلافا كبيرا عن المشاكل والعواطف التي يعانيها الاوروبي في حياته الحديثة ، وذلك لان مظاهر الحياة الاوروبية لم تتغير كثيرا عن مظهرها الحديث . اذ ان البناء الحديث لاوروبا بناء اعظم من حيث الكمية وليس من حيث الكيف . ان اوروبا لم تتغير كثيرا في اربعمائة عام ، وخاصة من حيث الجو النفسي للحضارة ، صحيح ان الوجه الاقتصادي لها قد تقلب اكثر من مرة بين الاقطاعية وبين بعض صور الاشتراكية ، ولكنه صحيح ايضا ان افتراق الوجه الثقافي هنا عنه هناك ليس متعارضا الى الحد الذي سوف يجعلنا نعقد المقارنة القادمة بين هذا الوجه لاوروبا وبين مجتمعنا العربي.

ان تاريخ الثقافة في الغرب يشبه اناء من الماء القراح تضاف اليه بين كل آونة واخرى قطرات من الالوان المتغايرة . صحيح انها الوان يمكن ان تغير لون الماء كلية ، ولكنها لم تفعل فيه اكثر من توحيده بلون واحد متحد في كل جزئياته .. اما في شرقنا العربي فهناك طبقة من الزيت بدل الماء القراح ، لا تستطيع الالوان ان تتحد به الا بصورة شوهاء ودميمة للغاية .. وذلك اذا مثلنا الماء القراح بحرية العقيدة .

الادب العربي ادب له جذور مخالفة لشكل حياتنا الحديثة ، لانه تعبير عن حضارة رعوية جافة ، ظلت لمدة طويلة طراز حياة الامة الوحيدة التي كان لها كيان نفسي في تلك الايام ، والدين الاسلامي ذاته تعبير عن تلك الحضارة الرعوية وتأكيد لها ، بل ان صورة الفردوس تعكس الى مدى بعيد مطالب الرعاة الذين لا يشاهدون سوى الرمل والصخور ، ويقتلهم الجفاف والعطش ، ويقلقهم الى حد العذاب انغلاق مجتمعهم من حيث الجنس والعلاقة بين الرجل والمرأة ، واذن فالفردوس يجب ان يخالف هذا المظهر لحياتهم : هناك الحدائق بازاء الصحراء ، وهناك انهار العسل والخمر بدل الجفاف والعطش ، وهناك حور العين ونساء لم تقع على جمالهن عين ، بازاء المجتمع الحابس لطاقات الرجال ..

اما الان فليس شكل حضارتنا فقط هو الذي تغير ، بل جوهرها ذاته، فحضارة المدينة تختلف جذريا عن حياة الواحات ، كما تختلف حياة المجتمع الكبير عن حياة القبيلة ، وتظهر المقارنة هنا مدى البون الشاسع بين التحول الكبير الواسع الذي حدث لحضارة الاوروبية . فالمدينة في الغرب تطورت الى مدينة أحسن ، وسوف تتطور الى المدينة الاحسن . اما هنا فالواحة تنقلب الى مدينة ، بكل الفارق الجسيم بين الاثنتين ..

اذن ، لقد تغير جوهر حياتنا ـ على الاقل اراديا ـ بكل ما يتبع ذلك من تغير للنفسية وللجو وللمشاعر وللوعي والفهم ، وكان لاوروبا الفضل الكبير في ذلك. التكنولوجيا تنتقل من هناك الى هنا، فنغير نحن الوسائل ولا نستطيع تغيير الغايات لاننا نحيا في قلق وجود وقلق فهم .. ان هذا اليأس القلق (لانه ليس يأسا كليا) الذي نحياه هو اعمق مظهر من مظاهر حياتنا .. لانه لا يتمثل فقط في علاقتنا بالرب ، بل لان علاقتنا بالرب تستوجب ان نلون علاقتنا بالاخرين وبالدنيا وبحياتنا .. بنفس لون علاقتنا بالدين . وهنا خطورة وضعنا ، فلم يكن الاسلام دينا بين الفرد وربه ، بل كان تنظيما تشريعيا ، وضعت مواده اصلا لمدينة صغيرة في الصحراء ..

وقد حارب الحكام المسلمون كل حركة تبغي امانا فكريا وتسليما من الدولة بحرية الذهن والتفكير ، وماتت حركة بطولية تمثلت في المعتزلة والقرامطة ، كان يمكن لها ان تكون القاعدة الاساسية لتطورنا الذهني ، ماتت هاتان الحركتان ، لا لان الدولة قضت عليهما ، بل لان العربي الجاهل المؤمن كان يفضل الف مرة ان يموت مؤمنا اعمى ، على ان يعيش مفكرا ملحدا مفتح العينين . اذن .. هناك تعارض كبير وضخم ومتسع للغاية بين الجذور القديمة لثقافتنا التي كانت تعبيرا عن واقع صحراوي (ومئات الشواهد في شعرنا وامثلتنا واحكامنا تثبت ذلك) وبين حياتنا الجديدة التي تستمد من الغرب اكثر من وجه . اي ان هناك اختلافا كيفيا بين واقعنا ، وواقع ادبنا الذي يسلك الطريق الكلاسيكي القديم . ان حياتنا تمشي ، وفكرنا واقف مكانه ، فهل هذا اداء لانطلاق مأمول ؟..

المظهر الثقافي الوحيد في حياتنا كعرب هو القرآن ، ومجموعة الشعر القديم ، ثم قصص الف ليلة وليلة .. اما عن القرآن ، فلم يكن ممثلا بالميثولوجيا كما كانت التوراة ، قدر امتلائه بالمواعظ والحكم والانذارات. وللتوراة فضل اخطر واجل من ان ينكر في خلق اجيال عديدة من الشعراء والروائيين وكتاب القصة الطويلة والقصيرة في الغرب ، على حين كان القرآن تعليميا للغاية ..

ومجموعة الشعر التقليدية ابعد عن حياتنا بشكلها الجامد ومضمونها الرعوي ، بصورة تعجز الباحث عن اكتشاف قيم غير شكلية او وعظية فيها ..

اما الف ليلة وليلة ، فلا تراث غربيا او شرقيا يمكن ان يقف بجانبها او يطاولها ، في تلك الفترة المضيئة من ايام وجودنا ... فهل تعد هذه

المجموعة العظيمة من القصص والحكايات بناء محكما للانطلاق منه الى ثقافة جدية ؟!..

ان في ذلك استحالة ، لان انصاف الحلول لا تبشر ، وحياتنا قبل كل شيء هي التي تطالب بالتحول ..

عرض للمخارج :

اننا نصنع بلادنا الان ، ونستغني قليلا قليلا عن البضائع الغريبة لان انتاجنا اصبح يقف على قدميه وسوف يناطح الانتاج الاوروبي قريبا ، بل ان نفسية العربي ذاتها قد اخذت في التحول ، وادراك مدى ضرورة ان نعيش على مستوى انظف واجمل واعقل من المستوى الذي عاشه آباؤنا ...

ان الآلة تصبح العلاقة بيننا وبين الطبيعة ، بعد ان كنا نفهم الطبيعة على انها الشيء الوحيد الواجب تجنبه في نزوعنا الى المجرد والى الله!! ان منطقنا نفسه يتغير لاننا احتككنا بالذهن الاوروبي ، واذن ، فوقفة منا صغيرة لاختبار الارض التي نسير عليها ، كفيلة باضاءة طريقنا :

الى متى يظل الادب العربي كصورة لحياتنا متخلفا ، على حين تتطور الاداب الاوروبية بشكل منتظم ، وكيف يمكن لنا ان نمنع التحول الظاهري الى الغرب ، بخلق ادب له ملامحنا وشكلنا وينطق بعربيتنا ؟!..

ان امامنا اكثر من مخرج :

ـ ان نلغي تراثنا برمته ونلقي به في المحيط ، وان نبدأ في الوقت ذاته عملية ترجمة واسعة النطاق وبمنتهى الدقة والامانة لكافة الاعمال الغربية التي اسهمت في خلق الذهن الاوروبي ، ابتداء من الفكر الفلسفي والنقدي حتى المسرحي والروائي والشعري ، والا نترك مفكرا كبيرا واحدا بدون ان نترجم اعماله جميعا ، وذلك يتطلب منا اخلاص خمسين عاما من العمل المتواصل الشاق ، ويتطلب ايضا ان تكف الاذهان الخلاقة عن العمل وان تتحول الى الترجمة ، وهذا يفترض ان نؤمن باننا جيل الخيانة . لان ذلك معناه ان نرفض ماضينا وحاضرنا وتاريخنا. ان نقتل ذواتنا وان نتشبه بمن لن نشبههم ولو في مليون جيل ..

٢ ـ ان نغربل انتاجنا الادبي برمته ونصفيه ونختار منه الصالح ونلفظ القميء والسيء والمحدود ، وان نحاول ان نجعل من الاعمال المختارة اساسا نبني فوقه تراثنا الحديث ، وذلك يفترض ان نختار الاعمال الفنية التي تقارب شكل حياتنا الحديثة ولا تعارضها ، والوجه الخطأ لهذا المخرج هو انعدام الاعمال الفنية الصالحة لحياتنا الحديثة في شرقنا العربي ..

ج ـ ان نرفض ادبنا القديم كلية ، وان نرفضه بدعوى لاصلاحيته مع واقعنا ، وان نرفض الادب الاوروبي جميعا بدعوى لانطباقه على حياتنا ولغتنا وثقافتنا ، وان نخلق من اعمالنا الحديثة جذورا لادب مستقبلي جديد ، وفي هذه الحالة يجب ان نقنع بمجرد الامل .. وحتى صورة هذا الامل ستكون مهزوزة جدا ، فما هي اعمالنا الحديثة التي تصلح خلفية لادب قادم ..؟

د ـ ان نغوص في الادب الشعبي وان نستخرج وننظم ونكشف هذه الاعمال المغمورة ، وان نطرحها في الاسواق ، على امل ان تكون هذه العملية خلفية حضارية هامة للذهن العبقري الذي نتشوف اليه، وخطأ هذا المخرج يكمن في ان الفولكلور تعبير مكتف جدا عن نفسية الشرقي التي نحاول ان نغيرها باستعراض هذه الحلول .. فكاننا ندخل دائرة لافرار منها ..

هـ ـ ان نختار كل هذه المخارج ، وان نلفظ المتعارض ، وان نعمل بها جميعا : لنترجم ، ولنبحث في فولكلورنا ، ولنغربل انتاجنا ولنوضح اعمالنا الحديثة ونقيمها ، وعيب هذا المنطلق المتعدد الوجوه يكمن في انها تتطلب تأزر الدولة والافراد ، في عمل متفان ومتواصل .

ولكي نكشف الارضية التي نقف عليها ، يجب ان ندرس امكانيات الفلسفة وامكانيات العقل ، وان ندرس كيفية الحد من الدين ومن التشريع ، وان نحاول ملاحظة الاسس التي تجمدنا وتؤخرنا ، وسوف نلاحظ ان عملية تحويل ادبنا من شكله القلق الراهن الذي هو نتيجة قلق حياتنا تصبح مستحيلة اذا لم نغير من واقع حياتنا ذاتها .. اذا لم نخطط لها أسسا ماوية منظمة ، تقلب واقع الشعب من جموده الى منتهى انطلاقه وتحرره ...

امكانيات الفلسفة :

نحن نعرف ان الفلسفة في اوروبا سابقة على المسيحية ، وذلك لان العالم القديم الممثل في اليونان كان حيا ومتفاعلا : كانت هناك امبراطورية ، وكانت هناك تجارة متسعة ومتشابكة مع بلدان العالم المعروفةوقتها ،والتجارةتفترض تبادل المعرفةوتبادل اللغاتوالثقافةوالمفاهيم وانشغال الشعوب بالواقع الحياتي للشعوب الاخرى ومناقشة قضاياهم وادراكهم لقوانين الوجود ولمشاكل الموت والحياة ، وقد كان لمصر الفرعونية شرف التفكير في هذه القضايا ، وشرف نقشها وكتابتها على الاعمدة ولفائف البردى ، وقد كان لتجارة مصر مع فينيقيا ومع بلاد ينت وقبرص، ان تحرك الذهن المصري فخلق وناقش وخاض في موضوعات على غاية من الاهمية والخطورة بالنسبة للواقع الفكري القديم . واذن فقد كانت التجارة اليونانية مع مصر ومع بلاد اخرى كثيرة فرصة نادرة للانشغال الذهني ولمناقشة القضايا العقلية الكبيرة قبل مجيء المسيحية بوقت طويل . ولو افترضنا ان الاسلام وليس المسيحية هو الذي غزا اليونان ، لما امكن له بشكله التشريعي ان يدوم طويلا ، وذلك لان اليونان كانوا مشرعين وفلاسفة واخلاقيين من الطراز الاول ، وجاءت المسيحية فسدت نقصا كان ملحوظا في وجودهم ، وهو فراغهم النفسي من عبادة التوحيد . اما في شرقنا العربي فالفلسفة اولا متأخرة عن الدين . وثانيا كانت كل صور الفلسفة تابعة لسلطة الدين وغير مناوئة له ، اي كان المطلوب من

كتابان خطيران

عارنا في الجزئر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب

الفلسفة ان توافق على التعاليم الدينية وان تصوبها ... والعامل الوحيد الذي يقهر روح الفلسفة هو الضغط والاكراه التقليديان ، فالمعروف ان الذهن الفلسفي لا يأبه لشيء قدر ما يأبه لحرية التعبير عن الافكار وحرية المجادلة ، وقد كان هذا الضغط عاملا فعالا جدا في تمزيق الذهنية الفلسفية العظيمة لاحد الفلاسفة المسلمين ، وهو ابن رشد ،بقدر ما كان عاملا مساعدا في حدة هجوم الغزالي على منطقية الفلاسفة الذين يقولون بقدم العالم ويقولون بضرورة الوجود العنصري للاسباب والمسببات ، وقد قام كل هجومه اساسا لان اولئك الفلاسفة استطاعوا ان ينخروا البناء الديني ، وان يثيروا اسئلة منطقية ، كادت اجوبتها ان تزعزع الايمان التقليدي في قلب الجمهور .. واستند الغزالي في اقامة قضاياه على منحة الهية ، وهي جبن الفلاسفة الاخرين من بطش السلطة ، وخوفهم من النفي والتحريق ، فيما لو ردوا على تلك القضايا الردود العقلية الصريحة.

وقد فطن ابن رشد لهذا المزلق الخطير ، فحاول في خضوع ورقة ومذلة ان يجيب على تلك القضايا باكثر الاساليب ضعفا وخشوعا ، هذه القضايا التي كان يمكن لجواب عقلي واحد ان يقلب الذهن العربي راسا على عقب ..

اذن . كانت الروح الفلسفية معطلة وساكنة لان مشيئة السلطة والتقاليد ابت الا ان يكون المنطق والذهن في خدمتها .. ولقد كان ارسطاطاليس كاملا بين ايدينا ، فما كان احرانا ان نكون اول من يعرف الغرب على ذهننا الخالق ، لو كانت السلطة اقل دكتاتورية ، فاباحت التفكير ، واباحت المناقشة والنقد .. فكروا في الاف العباقرة العرب الذين ماتوا لان التقاليد كانت مصلتة فوق اعناقهم ، لان اقل مناقشة منطقية كانت قمينة بأن توردهم مورد الهلاك ..

وبسبب من هذا الشر بالذات يزخر تاريخنا بالاف المتصوفة والرهبان وعاشقي ذات الله ، فهذا هو الميدان الوحيد الذي ابيح خوضه ..

لقد كان هذا الخطأ ـ منع الفلسفة بالقوة ـ خطأ عصر باكمله ، خطأ مفكريه ومعتقديه وجمهوره .. وعلينا نحن تبعة ان نغير ذلك . فلو شئنا ان نحيي من جديد فكرنا الفلسفي القديم ، صدمنا باستحالة ذلك ، والا اعدنا من جديد صورة الضغط القديمة ، فلسوف نجد امامنا فلسفة اسلامية وحسب ، اما الفلسفة العقلية فهي اما احرقت واما ضاعت كلية ولو شئنا ان نقيم من جديد تلك القضايا التي ناقشها الذهن العربي ولم يصل فيها الى جواب ، لعنف السلطان الديني من جهة ، وانعدام الوعي من جهة اخرى ، صدمنا مرة اخرى لان الوضع الذي نعانيه ما زال هو هو ، فالسلطان الديني ما زال قويا ، والوعي من جهة اخرى ما زال مفقودا

واذن ، فان امامنا فرصة ان نترجم الفلسفة الاوروبية جميعا ابتداء من الذهن الاغريقي حتى الذهن الامريكي المعاصر .. وليس هذا التراث ثقيلا جدا لدرجة تعجزنا ، ففلسفة العصور الوسطى برمتها ، فلسفة لاهوتية ، ويجب ان تشجب مبعن مشروع ذهني كهذا ، فاذا اردنا ان نعيد ترميم ذهننا الذي نام بالقدر الذي حلا له ، وجب ان نبدأ فورا هذه العملية العظيمة التي سوف تسهم ـ لا محالة ـ في خلق الكيان العربي للمستقبل القريب والبعيد ، واذا كانت ترجمة ارسطو خلقت الى هذا الحد هذا التيار من التفكير العربي ، فما الذي تؤديه ترجمة الفكر الغربي جميعا .ولنلاحظ ان الترجمة لا تعني التبعية ، بل تعني الانفتاح على القضايا ، ولنضع في اعتبارنا الترجمة الجليلة التي قدمها لنا شيخ المفكرين في مصر وهو احمد لطفي السيد ، لارسطاطاليس ، وما اداه هذا العمل الفردي من خدمات عظيمة لاوساط المثقفين الكبار والشباب ..

امكانيات العقل :

ان المعرفة هي وسيلة للقدرة كما عبر بيكون خير تعبير ، مغيرا بذلك تيار التفكير التقليدي كله ، الذي كان يظن ان المعرفة غاية في حد ذاتها ... فالسيطرة على قوانين الاشياء للاستفادة منها هي غاية الفكر ، وليست غايته هي الكمون الداخلي في قلب الذات للاحظة العالم ملاحظة اجترارية هزيلة ، تنمي فيه الجانب اللامبالي ، وتفطي الجانب المقاتل الفعال

ومنذ كان الشرق شرقا ، كانت ملامحه على ما هي عليه الان : تقوى ومثل وخرافات واعتقادات قديمة واساطير وتواكل وبخور وتسليم بالقدر ورضى بعنف الحاكم ، بل وقبول مبرر بذلك ..

وكان على من يهاجم هذه الروح ان يضع في اعتباره مبدئيا ان الشرق هو الذي اعطى العالم الانبياء والرسالات الطاهرة ، والاخلاق والعبادة ... ومن هذا المنطلق كان الناقد يهتز حتى الاعماق بهذه العصبية الجنسية، وينسى معركته الاساسية ضد هذه الروح الخاشعة .. وتصبح مهمته الاولى هي اقامة التبريرات الاخلاقية على مايسميه عطش الغرب الى تراثنا.

المشكلة ابدا ليست اقامة الذهن الغربي ضد الذهن الشرقي . ان القضية اساسا في مدى قبول الذهن الشرقي للتطور ، فلو كان الذهنان قد تطورا معا من نقطة واحدة ، فذهب الغربي الى احتضان العلم ، وذهب الشرقي الى الحض على الزهد ، لكانت اقامة المقارنة منطقية تماما. ولكن الحادث يعاكس ذلك ، فالذهن الغربي الذي كان يؤمن بالزهد قد تطور الى ذهن علمي ، على حين غرق الذهن الشرقي في التيار الالهي ، وجمد على ذلك .. فباي حال تعقد المقارنة بين جسد يتنفس ويتقدم ، حيا الى نهاية منطلق الحياة ، وبين جثة يحفظها الكحول ، وبعض المقاقير ؟؟!..

ان نشأة الدين في بلادنا ليست سببا لتراخينا الذهني ، باكثر مما يكون تراخينا الذهني سببا لخلقنا للاديان والخرافات . فمنذ الاف السنوات نكبت بلادنا العربية ، ونكبت الهند وفارس بالقوى العسكرية الغريبة المجتاحة التي لا يحد جبروتها شيء ، وكانت هذه القوى تمتص حيويتنا وعصبيتنا وروحنا وقوتنا ، وتحاول ان تذيبها في الخضوع والتسليم ، وكان مجتمعنا الزراعي البسيط مساعدا فعالا لهذه الحركة الباطشة : فالمزارع لا يعرف الحرب ولا يفهم الثورة ولا يدرك اسبابها طالما المستعمر العسكري يسكن في المدينة ولا يهتم بالريف الا كما يهتم المدني العادي به ، ورجل المدينة لا يمكنه ان يصبح قوة عسكرية تطرد الطغيان وتلغي وجوده ..

وبقيت القوى الظالمة في بلادنا ما وسعها البقاء ، حتى تعلمت بعض البلدان الشرقية اصول الحرب والثورة ، وقامت بقلاقل كبيرة وصغيرة كما حدث ايام الحيثيين والبطالسة والمغول والاتراك والفرنسيين والانكليز.

ان الذهن الشرقي قد عطلته الزراعة بشكل عميق ، مستنفدة وقوده الثوري الخالق ، ودافعة له على الرضوخ لاي شكل من اشكال الظلم والبطش ..

ولا بد للذهن العام ان يحول بغضه الخارجي الى حركة داخلية ، اما تبتغي امانا ، وذلك شكل من اشكال الرضى ، واما الى حركة اخرى اخلاقية تسفه المظهر العسكري والقوة والشر ، وذلك يعني الدين ..

واختار الذهن الشرقي الحركتين معا . اختار ان يخلق الدين ، واختار ان يصبح اكثر امانا ، واصبحت مادة التبرير ذاتها دافعا الى السكون اكثر منها تفسيرا ..

ـ التتمة على الصفحة ١٠٢ ـ

ثورة على الفكر العربي المعاصر

تتمة المنشور على الصفحة ٣٠

ومضت السنوات ، وظلت الارض تنتج البقل والفاكهة ، وظل الفكر الشرقي يغوص في الخرافة والتسليم ، وتنقلت علامات الاصفاد والسلاسل في معصم الشرقي ما بين رومانية وفارسية ومغولية وتركية وانكليزية وفرنسية،وكان الشرقي الذي‌دودت قروحه ينقل‌النظر بين فاتح‌وفاتح‌بدون ان يثور او يتعلم الكراهية ..

وكان الوضع الداخلي للبلدان الشرقية موجودا اصلا لخدمة القوى الغازية ، وتمكينها من السيطرة ، وزاد الهم الملقى على كاهل الشرقي وناء به ، لان الحاكم افترض اول ما افترض الا يتكلم الشرقي والا يسمع والا يرى والا يفكر .. وكان على الشرقي ان يرضى بذلك ، بل وان يتحمس له ، في اللحظة التي يخدعه فيها الغازي مجلجلا له ..

ولنعتبر بخديعة الاسكندر ، ونابليون ، للمصريين في دعوتهما تبني الدين المصري الفرعوني ، ثم الاسلام ، لدرجة ان صار الاول نفسه الها بالنسبة لكهنة مصر ، وغض النظر عن جرائم الثاني المخزية ..

في تاريخنا سذاجة عجيبة ، ليس لاننا عاطفيون . ان العاطفية تساعد بالوقوع في الانشوطة ، ولا تخلق السذاجة التي توقعنا فيها . ومنشأ هذه السذاجة هو اننا نؤمن بان العالم خير ، مع جهلنا البات بعصرنا وبالقوانين التي تحكم التطور والانبعاث ، وخلقنا الدين اصلا للهرب من مسئولية الانتماء للعصر والمشاركة في الخلق والوجود والابداع ما زلنا نفسر المظاهر الطبيعية بالخرافة ، فيدق اطفالنا على الصفائح لتخليص الشمس التي تختنق ، ونعالج الشيزوفرينيا والنورستانيا بذبح ديكة بيضاء ، ونقيم حدا لصداع الشقيقة بقراءة سورة هود ، ونقاوم الاشباح والموت بترديد اية الكرسي مرات ثلاثا ، ولا نخجل من ذلك، في هذا العصر العجيب الذي اصبح ارتياد الفضاء فيه مقدمة لاخضاع مواد الكون جميعا للانسان .

ان العذر الوحيد الذي يسند شرف العقل الشرقي ، هو ذاته العذر الذي سند عقلية الجمهور المصري الفرعوني القديم بالنسبة الى قضية التحنيط ، فقد كان الكهنة يمنعون بالقوة وسيطرة الدين اية محاولة للمعرفة ، ويقرنون السر بالمطلق وبالاله وبالقدسية . أما الوضع في الشرق العربي فقد تحول من دكتاتورية الرهبنة والالوهية ، الى دكتاتورية الحاكم والطبقة الثرية التي تظاهره ، واستخدم الدين كبرشامة أزلية تعطى عند الحاجة وعندئذ تكاثفت سحب الثورة والتمرد . وكان الضعف موجودا في الذهن الشرقي لان مسكنته المعيشية والاجتماعية تطلب منه التفاتا كليا ، واهتماما مضاعفا .. (*)

ان الفقر يوحد الملامح ، ويوحد الاساليب التي تتبعها المجتمعات المتعاصرة ، خاصة اذا كانت احكام الديانة عنيفة بالقدر الذي في شرقنا العربي..

فاذا شئنا ان نحول ذهننا من وعي الخرافة الى وعي العلم ، ومن التسليم بالمقدر والمكتوب ، الى الاعتراف بالارادة واهمية الفعل البشري في التطوير ، اذا شئنا ان نبدأ حياتنا من جديد ، لا بد ان نقر بهذه الحقوق الاساسية للذهن :

أ ـ حرية التفكير والعقيدة ، وحرية التبشير بها :

اول مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية هو الاكراه العقيدي ، والسخرة الضميرية : لنتصور مسلما يتحول الى المسيحية او الى الالحاد بصفة خاصة ... : كيف يمكن له ان يعيش في وسط محتشد بالكراهية والحقد والسخط ، كيف يمكن له ان يباشر حياته العادية وصداقاته التي تزخر بها معيشته الاجتماعية ، بدون ان يواجه كل لحظة بالحط من كرامته ، ويعير بانه ضعيف وجبان لانه (غير دينه ، ودين آبائه ..) ؟!! وهذه الظاهرة ملحوظة بشدة في المدينة ، فما بالنا بها في القرية ـ على ندرة ذلك ـ ان على المرتد ان يضطر للمهاجرة من وطأة الضغط الاجتماعي والنفسي عليه ، بل ان اسرته ذاتها تتخلى عنه ، لانه (داس) على كرامتها وشرفها ، ولان الناس هنا يكونون عصبة دينية متآلفة متآزرة ، حيث يصبح المسجد هو الاصرة الوحيدة التي تلم اليها الافراد ، وحيث يتسيد شيخ المسجد في كافة شئون القرية من الزواج والميلاد الى الموت وادوار السقيا . (التسامح الديني الذي حض عليه الاسلام لا يناقش هنا . اننا نعرض قضية تحول المسلم عن عقيدته ..)

الاكراه العقيدي يوجب الصمت والسكونية ، بل انه يصل في أعلى حدة له ، بالحض على‌رفض كل فكرة يكون الغرب مصدرها ، لانها بالنتيجة فكرة (كافرة) ، ذلك لان العقيدة الاسلامية واجهت من قديم طغيان العالم المسيحي الاستعماري ، ولم تستطع ان تفصل بين الدين المسيحي ، او اي مذهب غربي ، وبين السلوك الذي يسلكه مسيحيون مخلصون . وفي الحروب الصليبية، والحروب الاستعمارية الحديثة كل منطلق هذه المواجهة المستمرة . والضمير العربي له الحق في ذلك ، لان الاسلام ليس كالمسيحية علاقة بين الفرد وربه ، بل هو محاولة لتنظيم حياتنا الدنيوية على اساس اقتصادي واجتماعي وعاطفي ، فله الحق اذن ان يكفر بالعالم المسيحي الذي يؤمن بالحب والمساواة ، ويضربنا بالقنابل لاحتلال أرضنا .

غير ان هذه الضميرية لم تستطع ان تهضم الجواب على هذا التناقض :

فالرأسمال في الغرب هو الذي ينشر الدين ، ويوجهه وينظمه ، لانه يفيد من ذلك غاية الفائدة ، ويكفي ان نعلم ان مؤسسة روكفلر توزع في العام الواحد على المسيحيين المخلصين ملايين عدة من نسخ التوراة .. فهل تفعل ذلك لانها تحب المسيح كل هذا الحب ..؟ واذا كانت كذلك فلماذا تمتص دم عمالها وتلقي اليهم بالكفاف ، لماذا تسكت على امراض الفاقة والسل والانيميا الخبيثة التي ترتع في دم وصدور عمال منشآتها ..؟!!

الثروة تساعد الدين ، لان احكام الدين توزع التقبل والسكوت على الفقراء ، وتحرضهم على تجاهل المادة ، لان ذلك فقط هو الذي فقط يفتح لهم ابواب الفردوس على مصراعيه..

اي سند اكثر من ذلك يحتاجه الرجل الثري ، ليمنع تكالب الفقراء على الثروة ، ويمنع مطالبتهم بزيادة الاجور ، وتخفيض ساعات العمل ... اي سند اكثر من ذلك .. وسند يأتي من الله ايضا ؟!.. والثروة الغربية هي التي تحارب الاسلام ، لا لان الاسلام واقف ضدها ، بل لان تاخر الاراضي الاسلامية يغريها بتسويق منتجاتها ، وزيادة ثروتها ...

فلم تكن المسيحية هي التي قامت بالحروب الصليبية ، اكثر مما كانت الثروة هي المحرك الاساسي للضمير المسيحي في الغرب ، فقام قومته المعروفة وجمع الجيوش والاساطيل ووجهها لانقاذ عاصمة الله .. لن تقوم

(*) حتى الان ، ما زال العربي يقول اثر كل نقاش في أزمة سياسية (دعونا من هذا ، ولنلتفت الى لقمة العيش ...) ذلك لان منتهى الفقر الذي يعيشه العربي يقابله منتهى الانحطاط الذهني ، ومنتهى تسليم الامور الى السلطات والخشية من مواجهتها ..

للعرب مكانة فكرية في التاريخ الحديث ، ما لم يكافح الافراد والجماعات هذا الطغيان الدكتاتوري من السلطة في سجن الافكار وحرقها ، ما لم يقف المفكرون صفا واحدا ضد عمليات الشنق الفكرية التي تستعملها السلطات للحد من الثورة ومن الوعي . فاذا صمت المفكرون على ذلك وخشوا نتيجة التمرد ، فما أطول الوقت اذن على النور ان يضيء حياتنا ، وما اكثر ما سنمضيه في الظلمات من اعوام واعوام واعوام !..

لنفتح الابواب للافكار ، تصطرع وتصطدم وتتعارك ويفني بعضها بعضا ، وهكذا فقط يمكن لنا ان نعرف اقدرها على الصمود المنطقي، واكثرها قدرة على الوقوف في وجه النقد ، وفي وجه التقليدية . اما اذا شئنا ان نظل في صمتنا المؤنس هذا ، باقتناعنا العاطفي وتخلفنا العقلي والضميري فقل علينا وعلى حضارتنا السلام ...

ان حرية العقيدة وحرية الاعلان عنها هما من اخص خصائص الحياة الفردية في العصر الحديث ، وبدون اقرارها يستحيل ان نتطور وان نتقدم ، وسوف نقابل في كل خطوة بحكومة تفتح لنا السجون والمعتقلات، وتلقى بنا في الزنزانات ، وتقلع اظفارنا ، وتدمي افخاذنا وصدورنا بوخز الابر ، وتحرق شعر اجفاننا ، وتهتك اعراض شقيقاتنا وامهاتنا . كل ذلك لاننا نخالفها الرأي، ولاننا نعتقد بصواب ما نفكر فيه .. كل ذلك لاننا نقول حقيقتنا .. كل ذلك لاننا نستجيب لعصرنا .. كل ذلك لاننا نود ان نطور عقلية البهائم ، ونطور حياة الوحوش التي نحياها ..

فأية مأساة نعيشها ، واية جريمة نقترفها بالسكوت على ذلك .. اية جريمة ؟.. لقد انعدم الحس النقدي في ضمير الفرد الشرقي بتأثير هذه الحركة الاعتقادية الموحدة التي تفترض في كل انسان ان يكون نسخة من الانموذج المذكور في الكتاب المقدس .. ان يكون كذا وكذا ، والا يكون كذا وكذا .. وسرنا على هذا السراط ، منا من وقع لخطأ اقترفه ، ومنا من فضل القفز في الهاوية على ان يظل عبدا مرسومة له طريق حياته. وواصل الباقون هجرتهم الاختيارية نحو السراب الفردوسي.. وتتشكل هنا مسئولية المفكر العربي الراهن من مجرد الروى وحكاية القصص المسلية ، الى الاعلان عن هذه الانقلابية الذهنية ، بالحض على حرية الفكر ، وقول ذلك بكل الطرق وبكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة . فكفانا كل هذا الزمن الذي امضيناه مخدرين ، مغلقي الاعين والعقول ، ولنضع في اعتبارنا ان السلطة بالدرجة الاولى ليست نظاما . انما هي افرادمثلك ومثلي،يجلسونعلى العرش الذيصنعه النظام.فاذا كانوا افرادا مثلك ومثلي فلماذا نخشاهم اذا كنا نطالب بحق لنا ؟.. ان السلطة تعبير عن ارادة المجموع وليست ضغطا غير مشروع على هذه الارادة .. لنضع ذلك في اعتبارنا ، ولنكافح الظلم والبطش والدكتاتورية ، لاقامة مدنية يحلم بها الشرق منذ مئات العصور ، وهي المدنية الديموقراطية ..

ليكن ما نقدمه للغرب من حضارة ، هو المفهوم الحق للديمقراطية ..

ب ـ الايمان بالاشتراكية :

الفقر هو المشكلة الاولى في الشرق العربي ، وتكفي زيارة قرية ، او حي شعبي في اصغر مملكة ، او اكبر جمهورية ، ليبرز وجهه الكالح بافظع قسماته ، واشدها انحطاطا .

ومن قديمكان سوء توزيعالثروة بالاضافةالى زيادة النسلزيادةهائلة(*)

(*) في عام ١٩٠٠ كان تعداد السكان في السودان يقل عن ثلاثة ملايين نسمة ، وفي عام ١٩٥٨ ، اصبح تعداده احد عشر مليون نسمة !!..

عاملين هامين جدا في هبوط المستوى الاجتماعي للاسرة والافراد في الشرق العربي .. ومصيبة ثالثة كانت تعمل عمل التبرير لهذه الخطة الجهنمية في اماتة شعب باسره من الجوع : هي التواكل . كانت الاسرة تتزايد في كل عام فردا ، على حين يظل الدخل الشهري لرأس الاسرة ثابتا عند حد لا يكفي شخصا واحدا ، وكان الرأس يقول : (كل ولد وله رزقه . الارزاق علىالله .. امة المسلمين لها اولية الرزق)!! وانتشرت الانيميا والسل وكافة امراض سوء التغذية والامراض الاخرى التي تعيش على الصحة المتعبة ، واخذت تقتل شبابنا وتنمي فيهم اللامقاومة والدعة وايثار الراحة والسلامة ، واخذت تخفض متوسط الاعمار الى ما دون الثلاثين .. كل ذلك لاننا نتواكل ، ونزعم ان الله يريد ذلك ، وان ارادته لاراد لها ...

وكانت فكرة الزكاة ايام الاسلام الاولى قوية التأثير جدا ، لان المجتمع الاسلامي كان رعويا وتجاريا على اضيق نطاق ، وكان حصر الثروة ممكنا ، لان رؤوس الاموال كانت معروفة ، وكانت النسبة تجمع بسهولة وبساطة، زد على ذلك حماس المسلمين لتطبيقها في الايام الاولى لنشوء الديانة ... اما الان ، وبعد ان تعقدت صور الثروة ، واستحال تنظيم الزكاة على الوجه القديم لها بعد ان تطورت حياتنا ، واصبحت ضرائب الدخل المتعددة تغنى عن هذا الشكل البدائي من الاشتراكية ، اصبحت فكرة (الزكاة) اختيارية محضة ، وباطلة التأثير الى اضعف درجة .

الارض العربية كنوز مطمورة ، ولا تنتظر الا العلم الحديث ليقفز بها من محدودية امكانياتها ، الى منتهى المنطلق المادي . ولكن العلم الحديث لا يكفي وحده لنقل هرمية الثروة من القمة الى القاع ، ولنذكر بلدا عربيا كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على زيارات طقوسية ، لفقرها الزائد ، دخلها العلم الحديث مكتشفا للبترول ، واستغنت هذه البلد نهائيا عن اموال الزائرين لانها اضحت بين يوم وليلة من اعظم البلاد العربية ثروة ... ولكن الذي حدث ، لم يكن الارتقاء بالوضع المالي للجمهور ، او رفع مستواه المعيشي ، بل كان ان تحولت الثروة الى ثروات عظيمة في خزائن الحكام ..

وظل الفقير فقيرا والمريض مريضا ....اي ان دخول العلم لم يغير من واقع الشعب المادي شيئا ، ذلك ان تغيير الواقع لا بد ان تكون اصوله في الذهن اولا . لا بد ان تكون القاعدة مؤمنة بالاشتراكية ، وبتوزيع الثروات على اساس العدالة ، لا على اساس الهبات والمنح والامر الواقع..

من منشورات دار الآداب

الحي اللاتيني(رواية) للدكتور سهيل ادريس

الخندق الغميق (رواية) للدكتور سهيل ادريس

دار الآداب ص.ب ٤١٢٣

ان الاشتراكية ترتبط بالحرية ارتباطا جسيما ، فلو نادت حكومة ما ، باشتراكية ما ، وكانت هذه الحكومة تسجن الشعب بالحديد والنار بدعوى تطبيق الاشتراكية ، بطلت هذه الدعوى من اساسها واصبحت كأن لم تكن . فمصدر السلطات هو الشعب ، وليس القمة ، وطالما كان الشعب مسجونا بواسطة الحكومة ، مكبوت الطاقات ، ومسلسل الارادة ، فلا فائدة في بعث او تقدم . ومن هو الذي يملك ان يغير ذهني بالعنف ؟!.

ان تطبيق الاشتراكية بالقوة ، والاشتراكية الف صورة ، ليس الا محاولة من محاولات محاكم التفتيش ، لا تختلف عنها الا في الصورة والشكل ..

مسئولية المفكرين العرب ترتبط ثانيا بهذا المجال النشاطي الهام ، وتتقيد به ، فلا بد ان تقوم ثورة فكرية تضيء جوانب حياتنا ، وتتصيد شكل الاشتراكية الذي يتفق ومتطلبات واقعنا الحضاري ودرجة تخلفنا. ولا بد ان يلاحظ هؤلاء مقدار الرباط الذي يجمع بين مشكلة طرح مفهوم الاشتراكية كما يراها كل مفكر ، وبين الوجود الحتمي لمجتمع حر العقيدة يسمح بالنقاش ، ويسمح بالنقد ..

ح ـ الحد من الدين :

لا يعني ذلك ان نطالب بشجب الدين من حياتنا المدنية ، فذلك اعنف ما يوجه الى حرية الفكر من طعنات، والصور التي نطالب بالحد منها هي مدى تعلقنا النفسي واغراقنا في تفسير مظاهر وجودنا بنصوص الدين . اننا لا نحاول ان نضع الحدود لديننا ، بل نتركه يتدخل في كل خصيصة من خصائص حياتنا الفردية والاجتماعية .

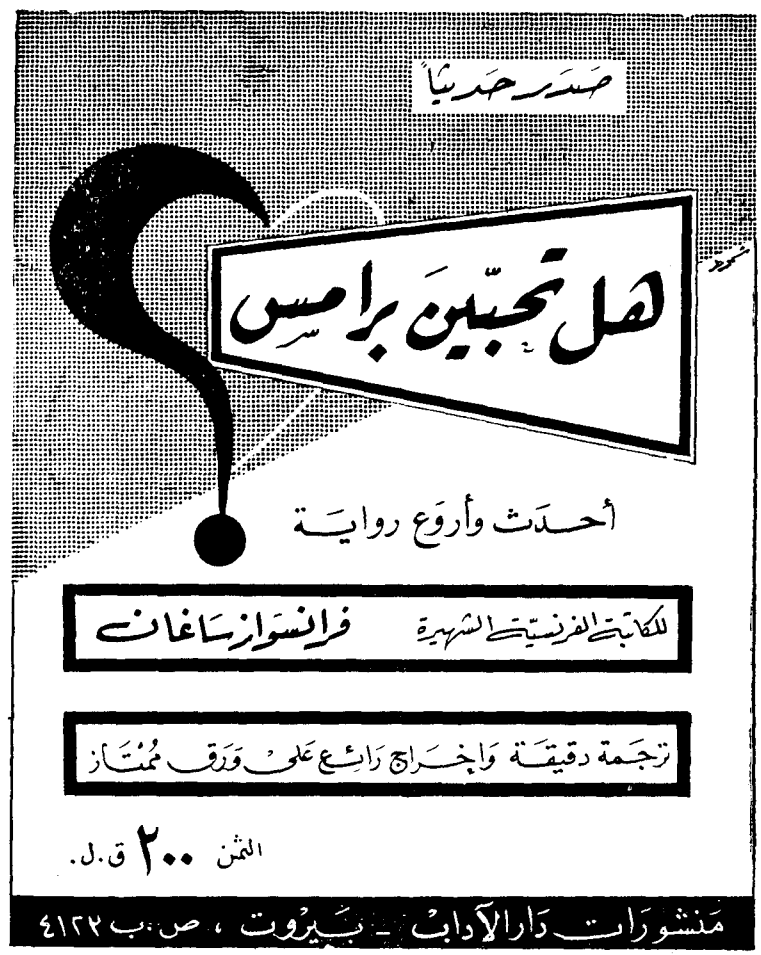

اننا عاطفيون وروحانيون ، ليس لان ديننا هو الاسلام . بل لاننا فقراء . ولان الفقراء يتعاطفون ويعطون لانهم يحسون الاسى والعذاب والذل والياس المغمورة فيها حياتهم .. بسبب ذلك نحن نفكر بقلوبنا، ونقدر بعاطفتنا ، وننـدفع في حياتنا على اساس انطلاقي وغريزي . اما العقل عندنا فهو شعلة خامدة مطفأة لا نعرفها ولا نعلم عنها شيئا ..

فاذا شئنا ان نغير هذا الواقع فينا ، من تعاطف الجوع ، الى تعاطف الشبع ، والتكاتف المصلحي ، فان علينا ان نضع خطا فاصلا بين الدين كعلاقة بين الفرد وربه ، وبين حياتنا كافراد وفقراء وثائرين ...

ان على الدولة في شرقنا العربي ان تخطو خطوة اولى لتنظيف رجال الدين ، او الادعياء شبه الرسميين ، بان تبدأ حملة عاجلة في الريف والمدينة للحد من استغفال الفلاحين والبسطاء ، بواسطة بعض الاذكياء المعممين ، الذين يأتون بالمعجزات والخوارق ، وفي نظير ذلك يسرقون الريفي طعامه وطعام اولاده وذهنه ايضا ..

وواجب على الدولة ان تمنع زيارة الاولياء والاضرحة بالقوة ، لان ذلك يجرنا الى عبادة الموت ، وليس عبادة الحياة ، التي نسيناها ، ونسينا كيفية استعمالها .. وان تمنع حفلات الزار ، وموالد الذكر من خاصة المتصوفة الراقصين وعامتهم .. ان تمنع كل هذه المظاهر الساذجة من ديانة لاهي تابوية خالصة ، ولا هي كتابية خالصة ..

وبالطبع ليس هذا هو التطوير المطلوب .. انه اعداد للارض ليس الا ، فالدولة لا يمكنها ان تغير ذهنية الجمهور ، فذلك ليس في صالحها . اننا نطالب فقط بان يقل جنون التحمس الهستيري الذي نلحظه في مثل هذه الاحتفالات الهمجية المتاخرة ، واملنا ان يجر الاقلاع عن هذه العادات البربرية ، ذهننا من مرقده ، فيتحرك وينطلق ..

واذا كانت ارادة التطور تساورنا الان ، فما اقل ان تبدأ الدولة بخطوة من عندها ، حتى اذا كنا نقشها ، ونفعل ذلك في غير مصلحتها على الزمن البعيد ...

ان على المفكر العربي مهمة ان يبدأ في وطنه وطبقته ومدينته وحيه ومنزله وشقته ، حربا مخلصة غير متوانية ضد هذه المسكنة العاطفية ، بغية تحويلها والنهوض بها . هذا اذا كانت رسالته حقا هي ان يرى وطنه النور والعظمة والامجاد .

ء ـ فرع تربوي للمشكلة :

الجيل الذي نعيشه هو ملامح اجيال ثلاثة : جيل آبائنا الذي اكل وشرب من خبز الاستعمار والاسرة المالكة والحكام الاتراك ، فثار احيانا ، وهمد احيانا ..

جيل افسدته ظروفه الاجتماعية ، وأتعبته محاولاته للخروج من مازق وجوده ، فتعطلت فيه ارادته وامكانياته وصيرته عاطلا عن التفكير وارادة النزال ، وتركت له فتاتا من الاعتقاد يتعيش بها حتى نهاية ايامه . هذا الجيل لا خير فيه ، لان حكمته اكبر من شجاعته ، ولان مهادنته اعظم من ثورته ، ولان داعي الموت فيه اقرب من دواعي الحياة والتجدد .

والجيل الثاني ، هو جيل الشباب الذي يدوخه قلق المسئولية وقلق العصرية وقلق البحث عن القيم ، ويدوخه قلق الوجود الذي يعاني منه الشرق العربي على العموم ، وهذا الجيل لا يملك الا تمرده الخاص الذي يكاد يفقده اثناء محاولته البطولية الرائعة في نقل هذا التمرد كحس فردي الى الصعيد العام . فالظروف السياسية تقهره وتحاول

تحطيمه،والمجتمع غير الواعي يحاول عزله والتقليل من شأنه، والجيل الاول يسخر من امكانياته ومن قدراته ، وينبئه كل لحظة ان ما يفعله هو الان ، قد فعله قبله بجيل كامل ، بدون طائل ولا فائدة .. وان عليه ان يلتفت الى طعامه ، وان يترك السياسة لاصحابها .!!

وهو ـ هذا الجيل الشاب ـ الوحيد الذي يرى امته في وحلها اليومي يرى صراعها المستتر في الوجود ، ملاحظا بكل عنف وجسارة ، ذلك التيار القوي الذي يحمل الغرب في رحلته المادية ، وواقعا بعد ذلك في تناقض الوجود ، والاحساس بسخفه وعبثه ، من هذا المنطلق الضيق الذي كان كافيا قبل ذلك لتحطيم آبائه ..

هذا الجيل المتمرد الشاب ، هو جيلنا الذي نعيش ، جيلنا الذي ننتسب اليه ، ونعبر عن خصائصه في كل حركة وسكون . ان هذا الجيل يعرف اين يقف ، ويعرف الذي يعطله ويوقف مجهوداته ، ويعلم ان السلطة تتآزر مع المجتمع لفض هذه المعركة التي يحسبها قدر حياته ومعنى وجوده ، وبالرغم من ذلك ، لا يبغى تسليما لهذه الثورة التي وضعتها الاقدار في يديه تعبيرا عن قفزة مليون من الاعوام تريد ان تتنفس وان تكون ، وان تصير ..

والمشكلة التي يطرحها هذا الجيل هي مشكلة القيم في شرقنا العربي ومدى تطلبها للحياة الجديدة التي تتنفس في ارضنا قليلا قليلا..

ان تاريخنا زاخر بالتراث الديني والاخلاقي والاسطوري ، وفقير من حيث الالة والتكنولوجيا ، فلماذا كان علينا نحن فقط ان ندبر اتفاقا بان الالة تناقض الحس الاخلاقي .. لماذا كنا نحن من زعم بان هناك اختلالا بين التركيب العاطفي وقضية تحولنا الى العقل .؟ لماذا كنا نحن من دون الخليقة كلهم اول من يقول برفض العلم لانه يتنافى والحساسية الدينية .. (*)

ان الزارع العربي ما زال يستخدم المحراث الفرعوني والبابلي في حرث ارضه ، فلماذا لا نشجب ذلك عنه ، ونجعله يستخدم اصابعه واسنانه ؟! طالما المحراث القديم نفسه آلة ..!

فاذا كانت القضية قضية سماح للمحراث الحيواني وحسب دون اية آلة اخرى ، فالقضية اسخف من ان تناقش .. اما اذا كانت القضية ، قضية خوف من تحولنا الى المادية ، فذلك ادعى الاسباب الى السخافة، لان الارض ستتحول شئنا ام أبينا ، وسيتطور الناس في شرقنا رفضنا ذلك ام أردناه ، وسوف يصبح شرقنا العربي صناعيا ، رأينا ذلك او لم نره ، لان منطق الحياة ، ومنطق الوجود ، ومنطق الزمن ، وهذه الدفعة الواعية التي يشهدها جيلنا ويندفع في تيارها التطوري العظيم ، يدفعنا الى ذلك ، ويدفع حياتنا دفعا نحوه .

فقط .. نريد ، بدلا من أن نعطى للزمن وحده شرف تطويرنا ، ان نشارك معه هذه الفعالية الارادية ، ليقال عنا اننا حققنا ما رسمناه كهدى لحياتنا ..

ان الجيل الشاب يكافح من اجل رسم مخطط تقييمي يقفز من حدوده القديمة الى منطلق ثورة حضارية جديدة ، ولكن .. وفي نفس الوقت ، تطل ملامح الجيل الثالث الطفل في منتهى براءته وخلو باله واطمئنانه، فماذا اعددنا لهذه الوجوه الحلوة التي لا تكف عن الابتسام ..؟ ما الذي وضعناه في أيديها من وسائل يكافح بها ضد الزمن وضد التاريخ الذي لا يرحم ..؟!

(*) لم يقل الدين ذلك صراحة ، انما سلوكنا هو الذي ينبىء به ..

ان على الدولة ان تحول ذهنية الاطفال من التسليم الى المقاومة ، ومن النكوص الى الاقدام ، ولن يتأتى لها ذلك الا بتحويل المناهج الدراسية تحويلا كليا من الدروس الادبية والدينية والاخلاقية ، ومن أمثال الحكمة « الادب مفضل على العلم .. » ، والتي تحتشد بها البرامج ، الى تخطيط عقلي جديد يؤمن بالعلم الحديث ويؤمن بانتصاراته. وذلك يستدعي ان تطور المناهج تطويرا جذريا ، فتدخل علوم الذرة والكيمياء الطبيعية ، والرياضيات العالية ، محل العلوم الصفراء التي لا تخرج عن حدود استعمالات الالفاظ والمناقشات اللغوية والرجوع الى ما قاله فلان وفلان من احاديث واحكام ..

ان الجيل الثالث ينتظر ان نمهد له الطريق ، فذلك وحسب هو اقل واجباتنا نحوه ، واكثرها ارتباطا بشرفنا وبمعنى وجودنا .... فهل نبخل عليه حتى بذلك .. ؟!!

هـ ـ فصل العقيدة عن الدولة :

اول ما نطالب به ، بمنتهى العنف والصلابة ، هو فصل الحكومة المدنية عن الدين ، وعدم النص في مقدمة الدستور على دين الدولة الرسمي . فتلك مظاهرة من اشد مظاهرات العصر الحديث تأخرا ، واكثرها مدعاة للانحلال والتقهقر الحضاري ..

فالدين في اعظم صوره ، ارادة فردية تريد ان تتعلق بقوة وتفسير خارقين بكل مجالات النشاط الحيوية والانحلالية الساكنة في ارضنا . هي ارادة ترغب في ان تعطل عقلانيتها وان تستمد من المعجزات ومن الاسطورة غذاءها التكويني . انها شكل من اشكال العبادة القبلية المعاصرة في استراليا وجنوب افريقيا ، فاذا كانت صورتها الاساسية بهذه الخلال من التفرد والشخصيانية ، كان تعلق الدولة بها ورسمها كسياسة

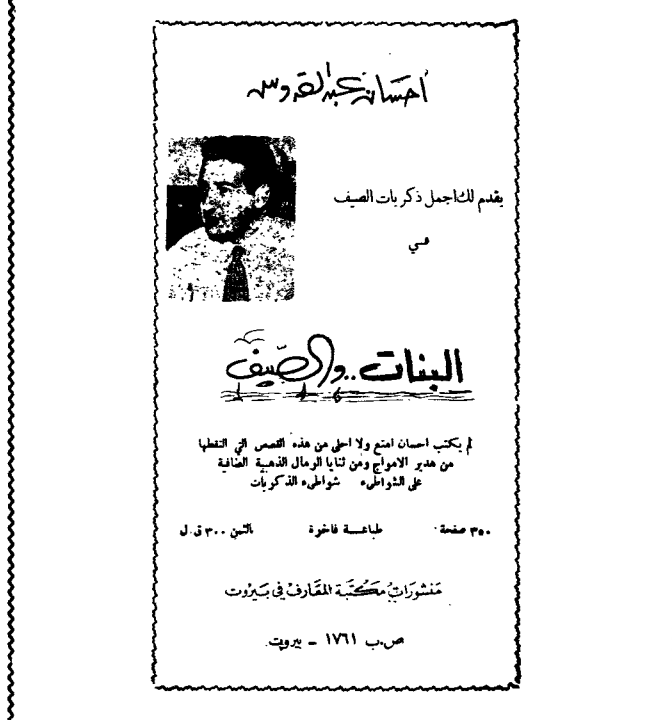

ومحتوى لوجودها ، محاولة منها لنقل كيان الديانة من داخلها الفردي وكونها علاقة بين الفرد وبين آلهه ، الى الصعيد السياسي ، ورسمها خطة عامة تحاصر بها ذهنية البشر الذين يتخطون هذه التفاسير الغيبية ولا يريدون لها ان تكون مبررا لوجودهم ، ما داموا مقتنعين بتفسيرات اخرى اشد منطقية وذهنية ..

فالدولة تخطىء مرتين اذا نصت في دستورها على ديانتها الرسمية ، الاولى في حق حرية التفكير ، وحرية العقيدة ، وفي حق المستقبل الذي يصبح مشدودا الى هذه الحرب الكريهة بين الوجود والعقيدة . وتخطيء مرة ثانية في حق وجودها نفسه كارادة واعية لروح كل فرد من افراد الشعب ، واستجابة لدوافع التقدم فيه ، فاذا لم تكن الدولة تعبيرا عنك وعني ، اذا لم تكن ارادتك ، وارادتي .. فما تكون اذن ؟! واذا كانت هذه الدولة المتكلمة باسمي ، تطبق الخناق علي ، وتقول لي : لا تفكر الا بالقدر الذي يحلو لنا ، ولا تتكلم الا بالقدر الذي نريد لك .. » اذا كانت الدولة تصفدني في ذلك ، فما هي العلاقة التي تصبح بيني وبينها ان لم تكن علاقة الكراهية والبغض التي تصل حتما الى التآمر عليها ، والرغبة في ازالتها من الوجود ؟!!

وقبل كل شيء ، ما هي الدولة ، ان لم تكن انت وهو وانا ؟. اهي قوة مجهولة تحكمنا . ام هي الرباط الاجتماعي بينك وبيني وبينه ، اهي مشيئة علوية ، ام رغبة منا مشتركة في احترام افكارنا ووجودنا .؟!

الدين خيط سري مشدود من المجهول الى القلب البشري ، يصل اليه في قمة عزلته وتوحده ، ويربطه بكل ما هو قابل للتاويل العاطفي في الكون ، ويبعده في نفس الوقت عن كل ما هو منطقي وعلمي .. انه كلمة بين الانسان ومطلق الاسرار ، فما دخل السلطة في ذلك ؟.. ما الذي يحشر هذا الوجه الحديدي بين فرد وربه ..؟!

ان لنا ان نعتقد بالذي نستريح اليه ذهنيا وعاطفيا ، واذا كان اعتقاد بعض منا خاطئا فالامر متروك للنقاش الحر والنقد كيفما كانت صورته . اما ان تاتي الدولة فتفرض السجن عليك وتمنعك عن التعبير بدعوى خطئك ، فذلك تدخل منها فيما لا يعنيها ، وتطاول لا يصح الا ان يقابله تطاول الافراد انفسهم عليها ، والمطالبة باخص حقوقهم ارتباطا بهم ، وهي حرية التفكير ، وحرية التبشير به ..

و ــ تغيير الذهن الاسطوري :

لماذا نحن تقليديون .؟!

هل لاننا نؤمن بالدين ؟! ان كل مجتمع متدين لا يحب ان يؤمن بالجديد ، لان في ذلك مجازفة بالقديم الذي لا يؤمن به ، واطاحة بالاسوار التجريدية التي يلجأ اليها ويطلب منها الامان والعدل ..

فما الذي يبقى للفقير اذن ، لو ضاع الرجاء ، وتبخر الامل في عالم آخر كله عدالة وحب ، ما الذي يبقى ! ان الاغنياء في الدنيا ينهبونه وينبهون جهده وعرقه ، ولو كان يملك الارض نفسها وجنيها ، كما ملك ريها وسقياها ، ما امكن له برغم ذلك ان يتحكم بالسعر الذي يبيع به ما جناه .. والله يرى كل شيء : يرى الغني وهو يحدد السعر بالاتفاق مع الاغنياء الاخرين ، ويراه جذلا بربحه العظيم ، بينما يموت اولاده جوعا وقهرا ... فلماذا لا يؤمن بارض اخرى ترضى فيه حس التشفي الذي يتوقد في داخله ؟.. لماذا لا تكون هناك ارض جديدة فيها العدالة وفيها الاغنياء يتلوون من النيران ، بينما يأكل هو من خيرات الجنة ما شاءت له رغباته ..؟!

ايظلمه هو الجشع الناعم المكردس ، ويموت دون ان يلقى عذابا على ظلمه واستبداده .؟ فلماذا اذن وجد الحار والبارد ، والابيض والاسود .؟

واذن فلا بد من وجود ثواب وعقاب . من اخلاقية قوية سيدة على ارادته وحس المنطق فيه ، لا بد ان يتحول الذل فيه الى امل في العدالة اعتى من المنطق واقوى منه ، لا بد من الخرافة ..!

وهكذا يفسر الشرقي كل شيء، بقوة خارقة عاقلة ترى الظلم وتعاقبه، وتضع ثوابا لكل فعل حسن ، وعقابا لكل فعل شرير ، وما دامت الدار الدنيا خداعا بصريا ، وعرضا زائلا ، فلا بد ان يحول الفقير البائس وجهه نحو الله . ورويدا رويدا اخذت هذه النبتة في التضخم والسمنة واصبحت رمزا وعلامة على الشرقي ، وانجبت لنا أبناءها : التواكل والايمان بالمقدر والانصياع للمكتوب ..

فاذا اردنا تغيير هذه العقلية كلية ، وتحويل ذهنية الميتافيزيقا الى ذهنية الوجود الواقعي المحسوس ، وجب ان نطلق صيحة عظيمة في هذه الاذن الميتة ، مطالبين لها ان تقوم وان تباشر حقوقها ، وان تعي وان تفكر وان تجرب وان تعيش..

وتلك مسئولية القادة المفكرة في الشرق العربي ، ولا مسئولية سواها . ان على الذهن القيادي ان يبدأ قفزة تعليمية بمناقشة القضايا الخرافية وقتلها ، وابراز الوجه لعظيم للتقدم الفكري في صورة دراسات لاهم النظريات الذهنية التي غيرت وجه الغرب ، واجزاء عديدة من الشرق نفسه .

اننا نحتاج ثورة على هذا الواقع الذي ينبض بالامكانيات ، ويحبل

دار الثقافة - بيروت

تقدم

شجرة الحرية

في ثلاثة أجزاء

تأليف : اليزابيث بيج ترجمة : هوفر مداد

تاريخ الشعب الامريكي وكفاحه من اجل الحرية
قصة صراع بين القديم والحديث
صيغ في قالب قصصي رائع

الجزء ٢٨٠ صفحة من القطع المتوسط
ثمن الجزء ١٥٠ ق.ل. أو ما يعادلها

بالقلق وحس التعجيل بالتطور ، وهذا الامر في ايدينا ، اذ لا تقل ارادتنا عن ارادة الغرب ولا تنقص ذرة ..

فلنعجل بهذه الثورة التي سوف تكون ابداعا وجوابا لنا ...

شكل حياتنا :

ان الفكر هو تتويج الوجود ، وكلما اتخذ الوجود لونا معينا ، اصطبغ الفكر به حالا ، بتأثير عاكس وسريع ، فالمفكر هو الانسان الذي يعيش اعمق مما يعيش الاخرون ، وهو لذلك يعاني من هذا الانفتاح الواعي على قيمةالحياة ، وقيمة العمل ، وقيمة اليأس .. ولا بد لنكسة ما، ان تترك في نظرته للعالم شكلها ورائحتها ، ولذلك نجد طعم فكرنا اليوم محتشدا بقلق عجيب ، مصدره هذا القلق في وجودنا ، الذي نهرب من تحديده وتأطيره ، فلا نحن نحزم امتعتنا ونرحل الى الغرب ، ولا نحن نصفي هذه الامتعة ونستخرج منها ما يصلح لنا في رحلة الوجود هذه المترعة بالالام ...

لا نحن نصير شرقيين اصلاء ، ولا نحن نتحول الى الغرب .. .

اننا نرفض المذاهب الحياتية الغربية بدعوى انها لا تمت الينا بصلة ، ولان ظروف حياتهم تختلف عن حياتنا ، وذلك صحيح الى ابعد درجات الصحة ..

ولكن : هل يصبح صحيحا ان نظرية ما ، عربية ، يمكن لها ان تغير حياتنا الان ، وفي هذه الظروف القاسية التي نعيشها .. ؟! اشك في ذلك جدا ، فقبل ان تكون هناك نظرية ، يجب ان تكون هناك ارض ... وارض ملائمة لظهور هذه النظرية . وارضنا عارية عن الاوليات التي تسمح بالانبات ..

فاول شروط الحياة هي الحرية ، وذلك معدوم ..

ثم ماالذي تؤديه النظرية في مثل هذه البلاد التي تحتاج اول ماتحتاج الى هواء نظيف تتنفسه .؟!

النظرية العربية في الوجود مطلوبة بشدة ، ولكن ، علي ان يسبقها ، ويبشر بها ارادة عارمة تطالب وتؤكد الحرية الفكرية وتوجدها ..

ان الايمان بالعقل وبالاشتراكية وبالحرية ، لايعني سوى رفع مستوى الشعب العربي ماديا وفكريا ، وذلك يعني تحولا حياتيا باقصى درجة من الجذرية والقوة ، ولن يصبح العلم وقفا على بعض الاذهان الفردة ، كما كان في تاريخنا الوسيط ، بل سيضحى تيارا وحركة اكبر من ان تخمدها سلطة او مشيئة حاكم ..

*

والان ....

الى متى يظل الادب العربي كصورة لحياتنا ، خاضعا لالف عام من الصحراوية ومن القلق ؟ اننا نموت رعبا اذا فكرنا في ان تحولنا الى المادة يقتل ضميرنا الروحي ، ونموت رعبا اذا فكرنا باستمراريتنا في مانحن عليه من قنوط واحساس بالتاخر ..

واذن ، فما العمل ؟.

اذا نظرنا الى المشكلة بشكل عام وغير مسؤول ، اي كما لو كنا نتفرج على الهية مسلية ، فسوف نقول بان الامر هو امر نظرية تخطط لحياتنا وسلوكنا . وذلك يعني الموت الى ان تقوم للنظرية قائمة ..

واذا نظرنا اليها على انها عقبة في سبيلنا لابد ان تزول ، ووضعنا في الاعتبار ظروفنا ووضعنا الاقتصادي والنفسي والسياسي والاجتماعي وتطورنا الدرجي بحسب امكانياتنا ، وجدنا ان الامر يحتاج ، لا الى نظرية ، بل الى تمهيد للجو ، وذلك يعني ان نكون نحن جيل التحويل وجيل المغامرة ، وذلك يستتبع ان تكون معركتنا الاساسية ، معركة المفكرين ضد السلطة والتقاليد ، وسوف تنتقل هذه المعركة سريعا الى رجل الشارع ، فتصبح معركة وجودنا جميعا ، وفي هذه اللحظة تنبثق النظرية انبثاقا من هذه الارض التي ستحبل سريعا بالنقد والمناقشة ، وعرض كافة الاراء في سبيل الاصلاح ..

وسوف نجد بعد ذلك ان ادبنا ذاته يخوض معركة الوجود التي نخوضها ، ويبدأ خطواته العظيمة المنتظرة ، لدرجة انني اجرؤ على القول بان جمود ادبنا هو بسبب من رتابة حياتنا وتقليديتها .. وان ازهى عصورنا الادبية كانت انعكاسا لازهى عصورنا السياسية والتجارية.

واذن .. لنؤجل املنا في ادب عظيم وشعر خالد يكتبه ادباؤنامادامت الخطوة الاولى الهامة لم تخط بعد ، وما دام الجو مشبعا ما يزال بدخان الكراهية والفقر والظلم والتقييد ..

ولنلتفت الى اقرار اهم ما نطلب به ، ونحيا من اجل رؤيته يعيش ويتنفس جنبنا ، ثم يصحبنا في رحلة وجودنا الصعبة ..

لنلتفت الى اقرار حرية الفكر والاشتراكية والعقلية ..

ولن يعني ذلك ان نكف عن الترجمة ، وان نكف عن الكتابة والتاليف واستيراد النظريات النقدية الغربية ، واستخلاص النظريات النقدية الشرقية من براثن الاكفان ومحاولة تلوينها بلون عصرنا ..

بل يعني ان تكون هذه المعركة نصب اعيننا دائما ، كشرفنا الاول ، واخص همومنا .. ان الارض النظيفة تسمح بخروج كل شيء ، وما دامت ارضنا تعوم فيها المستنقعات والبرك والجراثيم ، وما دامت الروح الشرقية تعيش هذا القلق العجيب ، الذي لااسميه مرضا ، لانه بحث جدي وعميق عن الهداية وعن الحقيقة ، ما دام الامر هكذا ، لنعمق هذا التيار الخصب بترك كل العقول تفكر كيفما شاءت وكيفما ارادت ،ولن يتاتى ذلك التعميق ، ثم الوجود الجبري للنظرية الا في ظل حرية تسود هذه الارض ..

واذن فلتكن رسالتنا الشابة قبل : فلنترجم او فلنبدع او فلننقل او فلنلتفت الى تراثنا .. ليكن جوابنا شعارا ، قبل ان يكون هندسة منطقية مادام الشعار حماسيا الى درجة انه يوافق عواطفنا ..

ليكن جوابنا : حرية الفكر ، او الموت ..

القاهرة — محي الدين محمد